السلوة

للأستاذ عبد الحميد العبادى

... وكان صاحبى كلما ثم تكاليف الحياة ، وضاق ذرعا بمعاشرة الناس ، التمس الراحة فيما تيسر له من أمور ثلاثة : العزلة ، والطبيعة ، والماضى البعيد .

أما العزلة فتعرف عليه هدوء السر ، وراحة البال . ثم هى فوق ذلك تهيء له أسباب التفكير فى نفسه ، وتعينه على أن يستعرض عمله ، وأن ينقده فى تؤدة وأناة . وصاحبى شديد الأخذ لنفسه ، مسرف فى تعهدها ومحاسبتها على الصغيرة والكبيرة ، فربما بات ساهرا متململا لبادرة بدرت منه ، أو زلة زلها لسانه ، وهو بعد حريص على راحة ضميره وطمأنينة قلبه ، فان استطاع أن يقيم علاقته بالناس على أساس من العدل والانصاف فذلك ، وإلا فليكن المظلوم غير الظالم والمقتول غير القاتل . من أجل ذلك كانت العزلة كثيرا ما تفتح عليه باب ألم معنوى شديد ، بيد أنه ألم فى شرعه محتمل مستعذب ، يصلى ناره ، راغبا وتخلص منها مغتبطا راضيا .

وأما الطبيعة ، فهى عنده الأم الرءوم : إليها يستريح ويسكن ، ومن جمالها ينهل ويعل . وفى حجرها تبعث نفسه المجهودة ، وتهيج عاطفته المكدودة . قد فتن بالطبيعة وحياة الطبيعة ، حتى ليكاد مزاجه يساير فصول العام إنبساطا وانقباضا ، وابتهاجا واكتئابا . ولولا بقية إيمان لانقلب صابئا يسجد للشمس عند شروقها وغروبها . ويهتف للقمر حين بزوغه وأفوله ، ويساهر النجوم والأفلاك من طلوعها لمغيبها . ولصار حلوليا يرى فى ثنايا الجبال وأعضاء الأودية ، وفى الأجنة الملتفة والصحراء البلقع ، جنا تراءى له فى غدواته وروحاته ، ولفتاته ولمحاته ، تحاول أن تستدرجه لتستهويه ، وتستميله لتفتنه . أجل ! ولولا أثارة من تماسك وتصاون ، لجنا على النبتة الواهية ، ولكبر للدوحة العالية ، ولأجهش للصخرة الراسية على ساحل البحر المتغلغل ، ولا ندفع بقول الشعر يساجل الطير ، لحنا بلحن ، وتغريدا بتغريد .

على أن صاحبى ليس بالناسك ولا الزاهد ، وقد يكون فى قراره نفسه ، وحقيقة أمره ، مرحا طروبا ، ويود ، على شدة انصرافه عن الدنيا ، ألا ينسى نصيبه منها ، ولكنه متزمت متشدد : يريد القوم صفوا من النفاق والدهان ، خلوا من الحقد والاضطغان .

فأما وقد أعجزه ذلك : فقد أصبح يرى حياته المنشودة فى الغابرين الأولين من أهل القرون الخالية : أصبح يراها فى الماضى البعيد . والماضى عنده عالم حافل بأعلامه وأحداثه ، زاخر بخيره وشره ، لا عيب فيه سوى أن القدم قد صهره ومحصه ، وأن الموت قد نحى خيثه عن طيبه ، وزغله عن صميمه ، فبقيت فيه كل نفس على حقيقتها ، ومثل كل حادث على جليته . من أجل ذلك اصطفى صاحبى من الماضين خلانا وأصدقاء ، قد أصفاهم الود ، وأخلص لهم الحب ، وأن اختلفت الدار ، وبعد المزار : لقد أدرك صاحبى أن الموت حق والحياة باطل .

***

تكاثرت الهموم هذا الفيلسوف يوما ، فخرج من منزله وقد طفلت الشمس للغروب ، فما زال يتخير الأمكنة والبقاع ، حتى أوى الى صخرة قد استقبلت بحرا خضما ، واستديرت مرجا معشوشبا مدهاما ، وفى شرقيها المدينة هائجة مائجة ، صاخبة داوية ، وفى غربيها قصر عتيق مثلم الجنبات متداعى الأركان .

فأخذ الفيلسوف مجلسه من ذلك المنظر الفخم ، وجعل تارة يسرح الطرف فى البحر الواسع ، فتطير شعاعا فوق صفحته أشجانه ، وتذوب فى هدير أمواجه آهاته وأحزانه . وتارة يثنى نحو المرج يداعب منثور زهره ، ويتسمع سجع طيره ، وأخرى يلتفت الى القصر يسأله أخبار من نزلوه ثم ارتحلوا عنه وكانوا أحاديث . حتى اذا مارتوى الفيلسوف من نسيم البحر ، وعبير الزهر ، وحديث القصر ، تناول هراوته ، وزر معطفه ، وعاد يؤم المدينة متمثلا الخطى ، مرددا قول الشاعر :

أن الطبيعة أم نستجير بها
من جانب للبرايا غير مأمون !

عبد الحميد العبادى

أنجزت دار الكتب المصرية طبع

ديوان نابغة بنى شيبان

أحد فحول شعراء الدولة الاموية ، وهو كسائر مطبوعات الدار فى دقة التصحيح وجمال الطبع ، وثمن النسخة الواحدة منه ٤٠ مليما للجمهور و ٣٠ مليما لأصحاب المكتبات أو لمن يشترى عشر نسخ فما كثر . ويطلب من دار الكتب المصرية